بين الغمام

مجموعة قصصيّة
بأقلام أشخاص ذَوي إعاقة

إصدار ونشر:
مكتبة المنارة العالميّة

مكتبة المنارة العالميّة
بين الغمام - مجموعة قصصيّة
2017

المجموعة القصصية «بين الغمام» هي باكورة ورشة الكتابة الإبداعية الخاصة بجمعية المنارة وبعنوان «أنا أكتب قصتي»، والتي بشّرت بولادة ثماني زهرات من الإبداع والتألق.

يحتوي هذا الإصدار المميز على قصصٍ لثمانية أشخاص تحدّوا الإعاقة ونجحوا في أن يتركوا بصمة مدوّية في دفاتر الذكريات.

اخترنا أن نطلق على هذا الإصدار اسما مميزا بعنوان «بين الغمام»، إيمانا منا بأن حياة الإنسان ترتطم بالعديد من التحديات تتمثل بالغمام، ونحن كأفراد علينا أن نشق طريقنا بينها لنفتح طاقة من الأمل تقودنا إلى غد أكثر إشراقًا.

مكتبة المنارة العالمية
www.arabcast.org

بينَ الغَمام

مجموعة قصصية

كتبها أشخاص من ذوي الإعاقة

إصدار ونشر:

مكتبة المنارة العالمية

بين الغمام

مجموعة قصصيّة

كتبها أشخاص من ذوي الإعاقة

تحرير:

الكاتب إياد برغوثي

التدقيق اللغوي:

الشاعر جورج جريس فرح

المربي بسام الشيخ سليمان

صورة الغلاف: تقدّموا

بريشة الفنانة جهينة حبيبي قندلفت

جميع الحقوق محفوظة © 2017

مكتبة المنارة العالمية

www.arabcast.org

الفهرس

مقدمة - عبّاس عبّاس	7
قصة مكتبة المنارة العالمية	13
السّبيل - حنيفة سليمان	19
ضحكة ناديا - جمان زعرورة	25
أيّام لن تتكرر - شروق خطيب	31
باص رقم واحد - تغريد عباس	39
عروس - حنان حلومة	53
الطبيبة - جمال مصري	59
وصفة! - عباس عباس	65
سأبقى بقربك دائما - ريم ارشيد	75
الصفحة الأخيرة - إياد برغوثي	85

المقدّمة

نكتب قصتنا

بدأت الحكاية منذ أكثر من سنة حين اقترحت على الصّديق الكاتب والأخصائي الاجتماعي د. جودت عيد أن ينضم إلى جمعية المنارة ومشروعها الطلائعي مكتبة المنارة العالمية بشكل خاص. تبادَلنا الأفكار بيننا وخلصنا إلى فكرة مميزة وهي إقامة ورشة للكتابة الإبداعية، يكون أبطالها من ذوي الإعاقة المبدعين. اقترح جودت أن يكون عنوان الورشة "أنا أكتب قصتي" ليسبر كل مشارك غوره، وليحفر في ذكرياته وتحدّياته الحياتيّة في ظل الإعاقة. وهكذا كان، حيث انطلق قطار باكورة ورشات الكتابة الإبداعية في مطلع نيسان مبشّرًا بولادة ثماني زهرات من الإبداع والتألق.

رَأَتِ المنارةُ في هذا المشروع أن تخلق مساحة لإبراز أن جمهور ذوي الإعاقة يتمتع بكل مزايا التميّز، شريطة أن تُمنح له الفرصة لإطلاق العنان لقدراته الكامنة. اعتمدت ورشة الكتابة الإبداعية الطلائعية على قواعد التمكين الذاتي لأشخاص مع إعاقة عن طريق المساحة الإبداعية الحرة التي وفرتها للتعبير الشفوي والكتابي عن تجربة المشارك الخاصة. كما وشكلت الورشة مساحة لطرح الضغوطات التي يواجهها ذوو الإعاقة في المجتمع وبلورتها من خلال نصٍّ يمنحهم الإمكانية لإسماع صوتهم للمجتمع وللتواصل مع الذات والفكر والألم الشخصي والخوض في مسار للتعامل والتواصل والتفريغ (كثارزيس). يعتبر هذا المشروع تكملة لسيرورة شرعت فيها

المنارة منذ سنين عديدة حين وضعت الإبداع والفن كرافعة لتمكين وتعزيز ذوي الإعاقة. نذكر على سبيل المثال مبادرة "إبرة وخيط رفيع" التي أبرزت القدرات التمثيليّة لدى جمهورنا العزيز من البالغين، ومسرحية "زمن الواتس" التي أبدع فيها جمهور الأطفال. ورشة الكتابة الإبداعية تؤكد أن أقصر طريق لرفع مكانة ذوي الإعاقة وتعزيز دَمْجِهم في المجتمع، تكون من خلال النهوض بمواهبهم وإخراجها إلى النور ليستضيء بها الجمهور العريض.

لكل مشروع يوجد قبطان، وكان من دواعي سرورنا أنه وقع الاختيار على الكاتب الفذ إياد برغوثي، الذي نجح بحرفيّةٍ أن يستخرج العملاق داخل كل مشارك ليسطر قصته بأبهى حلّة. بدأ إياد مسيرته مع المجموعة في لقاءات أسبوعية هدفت إلى تعريف المشاركين بالمهارات الكتابيّة القصصيّة الأساسيّة: القصة ومركباتها ومبناها الدرامي والتقنيات السرديّة القصصيّة، والعلاقة بين الذاتي-الشخصي والأدبي، وبين الواقعي والمتخيل، كذلك تم الانكشاف على تجارب كتابية لأشخاص مع إعاقة وكيفيّة اعتماد الأدب للتعبير عن مكنونات النفس والتطوير الذاتي، ثم اختيار اللون الأدبي الملائم لطبيعة الفكرة-الثيمة، منتقلا إلى مراحل الكتابة ومبادئها وكيفية توظيفها للتعبير عن الذات، وسبل توظيف التجربة الشخصيّة في بلورة الأفكار والتعبير عنها كتابيًا من منظور "الحياة مع الإعاقة"،

وكشفهم من خلال التفكير والكتابة، للتعرض إلى حالات مثل المقاومة، الحيرة، الارتباك، التكرار، المراجعة، التصحيح والتنقيح وغيرها، كي تشكل منبرًا لقضيتهم لتطوير القدرات اللغوية الكتابية والشفوية التعبيرية.

مرت الورشة بتحدّيات عديدة، حيث انسحب جزء من المشاركين لأسبابهم الخاصة ولأسباب موضوعية تكمن بأن الكتابة بحاجة إلى جهد خاص، خصوصا وأن كل المشاركين يفتقرون إلى الخبرة في كتابة القصة. ومع تتابع اللقاءات الأسبوعية للورشة بدأت معالم القصص بالبروز، وبدأ المشاركون في رسم لوحاتهم الواقعية الإبداعية لتجسيد هذا الإصدار المميّز.

ارتأينا في البداية أن نخفي عنكم محتوى القصص حتى ولو بإيجاز لنثير حب الاستطلاع لديكم وتنهلوا القصة تلو الأخرى. بإيجاز نقول إن القصص تميزت بالواقعية والإنسانية الصّادقة دون أي رياء أو ابتذال. يحتوي هذا الإصدار المميز على قصصٍ لثمانية أشخاص تحدّوا الإعاقة ونجحوا في أن يتركوا بصمة مدوّية في دفاتر الذكريات، واللافت للنظر أنني قمت في هذه الورشة بنزع قبعتي كمدير للمنارة وامتطيت جواد المشارك الشغوف لتكون قصتي جزءا من هذا الإصدار.

المنارة بدورها، ارتأت أن تخلّد القصص وتسجلها صوتيا لتنشرها عبر نافذتها الثقافية العالمية: مكتبة المنارة العالمية www.arabcast.org، وتقوم بتطبيقها للهواتف الذكية "مكتبة المنارة"، ليطلع عليها الآلاف، بل أكثر بكثير، ممن تَشْغَفُهم القراءة والإبداع على مختلف أنواعه.

اخترنا أن نطلق على هذا الإصدار اسما مميزا بعنوان "بين الغمام"، إيمانا منا بأن حياة الإنسان تتلاطم بالعديد من التحديات تتمثل بالغمام، ونحن كأفراد علينا أن نشق طريقنا بينها لنفتح طاقة من الأمل تقودنا إلى غد أكثر إشراقًا.

عبّاس عبّاس

مدير جمعية المنارة

قصّة

مكتبة المنارة العالميّة

تُعدّ مكتبة المنارة العالميّة أوّلَ مكتبة عربيّة تمّت ملاءمتها للمكفوفين ولذوي الإعاقة في القراءة في العالم العربيّ، وهي متخصّصة في إصدار الكتب الملائمة الصّوتيّة والرّقميّة وبطريقة برايل، وتوفيرها من خلال موقعها على الإنترنت "www.arabcast.org"، وتطبيق الهواتف الذكيّة المجانيّ على الأندرويد وأبل تحت اسم "مكتبة المنارة".

تنفرد جمعيّة المنارة بوضع حجر الأساس لمكتبة المنارة العالميّة، وهي أوّل جمعيّة عربيّة مقرّها النّاصرة. أسّستها، عام 2005، جماعة من ذوي الإعاقة الفعّالين لرفع مكانتهم في المجتمع العربيّ. جاءت إقامة مكتبة المنارة العالميّة انطلاقًا من إيمان الجمعيّة بأحقيّة الأشخاص مع إعاقة بالحصول على كامل حقوقهم الطّبيعيّة كسائر فئات المجتمع، ومنها الحقّ الأساسيّ في التعليم، الذي تكفله المواثيق الدّوليّة والقوانين المحليّة، والحقّ المشتقّ منه في إتاحة التّعليم والحصول على المعرفة والثّقافة بصورة تتلاءم مع احتياجات ذوي الإعاقة وموروثهم الثّقافيّ، وفق الاتفاقية الدّوليّة لحقوق ذوي الإعاقة و"معاهدة مراكش" لتيسير النّفاذ إلى المصنّفات المنشورة لفائدة الأشخاص المكفوفين أو ذوي الإعاقات البصريّة أو إعاقات أخرى في قراءة المطبوعات (2013).

يمثّل هذا المشروع رافعة ثقافيّة للآلاف من ذوي الإعاقة في القراءة في العالم العربيّ من المحيط إلى الخليج، فمن خلال الدّخول إلى موقع المكتبة يتمكّن المستخدم من الاستماع مجانًا إلى آلاف الإصدارات الصّوتيّة أو الرّقميّة بجودة عالية، وفي مجالات ثقافيّة متعدّدة ضمن أكثر من 30 فئة، بضمنها قصص الأطفال المتنوّعة والرّوايات الأدبيّة والشّعر العربيّ والتّنمية البشريّة وتطوير الذّات والتّربية والتّعليم وغيرها.

كما تعمل مكتبة المنارة العالميّة على سدّ الفراغ في إتاحة الكتب والمعلومات، المتمثّل بغياب الكتب الصّوتيّة باللّغة العربيّة، بجودة عالية ومهنيّة لشريحة المكفوفين بشكل خاصّ، والأشخاص مع إعاقة في القراءة بشكل عام. وتطمح مكتبة المنارة العالميّة إلى الوصول إلى أوسع شريحة ممكنة من ذوي الإعاقة في القراءة، بهدف تعزيز المعرفة لديهم بكنوز اللغة العربيّة وغيرها من اللّغات، إضافة إلى تمكين وتطوير قدراتهم في القراءة، سواء على مستوى التّحصيل العلميّ أو بناء المعرفة واستغلال وقت الفراغ، من أجل تعزيز قدراتهم وفرص اندماجهم في المجتمع، خصوصًا في التّعليم العالي وسوق العمل.

تفخر مكتبة المنارة العالميّة بأنها تحفل، حاليًّا، بأكثر من 815,000 مستفيد، وأكثر من 160,000 دخول شهريا، وبحوالي

50,000 عضو مسجّل، فالاشتراك فيها مجانيّ لكنّه منوط بالتّسجيل فيها كعضو مع إعاقة في القراءة، وتوضيح نوعها والتّصريح بذلك عبر وثيقة رسميّة مثل ورقة طبيّة موقعّة تشرح الإعاقة، بهدف إضفاء الصّبغة الرّسميّة لتفعيل الحساب مجانًا، والحصول على إذن بالاشتراك بالمكتبة. وقد أصدرت مكتبة المنارة العالميّة، حتّى هذا اليوم، حوالي 4,000 إصدار صوتيّ يتمثَّل بأكثر من 50,000 ساعة مسجلة، بجودة عالية وبمهنيّة كبيرة، بصوت كوكبة من القارئين والإعلاميّين البارزين الفلسطينيّين والعرب. تُتاح كافّة هذه الكتب للمكفوفين وذوي الإعاقة في القراءة بعد تسجيلهم، بينما تُرك قسم من الكتب مفتوحًا لجميع المسجّلين لأنّ الكاتب سمح بنشرها أو لعدم وجود حقوق ملكيّة عليها. ويعزّز انضمام آلاف المستخدمين للمكتبة الحماس نحو هذا المشروع في أوساط فئات محليّة وعربيّة مختلفة ترغب في دعمه وتطويره، خصوصًا على صعيد القارئين المهنيّين من إعلاميّين وأدباء. جدير بالذّكر أنّ جمعيّة المنارة منحت وسام "صديق مكتبة المنارة" لأشهر الأدباء الفلسطينيّين، منهم الأديب الفلسطينيّ العالميّ إبراهيم نصر الله، والرّوائيّ الفلسطينيّ العالميّ رَبعي المدهون.

يُعتبر مشروع مكتبة المنارة العالميّة بمثابة نقلة نوعيّة في مكانة جمعيّة المنارة، إذ يمثّل سابقة لجمعيّة محليّة، وسّعت رقعة تأثيرها

ونشاطها ليغدو دوليًّا بامتياز، فهي تستهدف ذوي الإعاقة في فلسطين والعالم العربيّ والعالم أجمع، وتتوجّه أيضًا بقسم كبير من إصداراتها للجمهور العربيّ الواسع. إنّ فحص رواج مكتبة المنارة العالميّة، بموقعها "www.arabcast.org" من خلال موقع قياس المواقع "www.com.alexa" التّابع لشركة أمازون العالميّة، يظهر أنّها تحتلّ المرتبة 94,463 ضمن قائمة المواقع الأكثر تصفّحًا عالميًّا، والمرتبة 1,863 في جمهوريّة مصر العربيّة.

تكللت نجاحات مكتبة المنارة العالمية بمنحها في الثالث من أيار (مايو) عام 2017، جائزة سمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم حاكم دبي للغة العربية، في محور الثقافة والفكر ومجتمع المعرفة، وذلك عن أفضل مبادرة لتعزيز ثقافة القراءة وصنع مجتمع المعرفة. تُعَدُّ جائزة محمد بن راشد للّغةِ العربية بمثابة أرفع تقديرٍ لجهود العاملين في ميدان اللّغة العربيّة أفراداً ومؤسّسات، وتندرج في سياق المبادرات التي أطلقها صاحب السّمو الشيخ محمّد بن راشد آل مكتوم نائب رئيس الدّولة رئيس مجلس الوزراء حاكم دبي، للنّهوض باللّغة العربيّة ونشرها واستخدامها في الحياة العامة، وتسهيل تعلّمها وتعليمها، إضافة إلى تعزيز مكانة اللّغة العربيّة وتشجيع العاملين على نهضتها.

السبيل

بقلم: حنيفة سليمان

التقيتها صدفة على أعتاب الزّمان. التقيتها في اليوم التالي لمشاركتي في دورة في الكتابة الإبداعية، والتي هي حلم آخر من أحلامي الرّاسخة في ثنايا عقلي وتحتل زاوية في القلب.

انفرجت تقاسيم وجهها الصّغير عن ضحكة حين لقيتها صدفة؛ سلمى، عانقتني، وسألتني عن أحوالي، فقلت لها إنني أبحث عن السّبيل لأصل إلى قصّة تحتل قلوب القراء. ثم سألتها عن حالها، فأجابتني: "أنا السّبيل. اكتبي قصتي وانزعي هذه الشوكة المغروزة براثنها في نفسي".

بعث القدر لي سلمى رأفة بحالي، فقد توقّف قلب أفكاري عن الخفقان، وعجز قلمي عن أن يخطّ أي حرف يذكر. موعد لقاء الدورة القادم يقترب، وصفحتي ما زالت بيضاء. أودَعتُ في عهدتها تاريخا على آجندة الأيام، تاريخًا مناسبًا للبدء بالمهمة، فأخطو أولى خطواتي نحو الهدف الذي أخذَ يتحقق أمامي الآن.

وقدم اليوم الموعود. استقبلتني في بيتها، أدخلتني إلى غرفتها التي علقت على حائطها صورة لها برفقة والدها، صورة عائلتها، شهادة تخرجها، وشهادة تقدير منحت لوالدها الممرض، وبقايا ملصقات ممحيّة من زمن الطفولة. عليَّ ككاتبة أن أدخل في تفاصيل عالم شخصيتي، وقدأدخلتني شخصيتي إلى عالمها دون حاجز، كم أنا محظوظة!

بعد صمت قليل سألتها سؤالاً عامّا كي تبدأ بالكلام، وأبدأ الغوص معها في أعماق بحر تجربتها، من أي كلمة تكون قفزة إلى بحر الحديث "كما ترين" أجابت، "بين البيت والعمل، العمل ممتع لكنه لا يخلو من التعب، أعمل في صندوق المرضى، أردّ على الهاتف، أجيب الناس عن أسئلتهم حول حقوقهم الصّحيّة، وأعيّن لهم المواعيد للأطباء المختصين". تلهّفت للحديث عن العمل وبدأت تحكي عن الفرق بين الزبائن اللبقين والوقحين وكيف تتعامل مع كلّ صنف. لم يكن هذا ما أردتُ أن تحدثني عنها، لكني هززت رأسي بإصغاء وبحثت عن لحظة مناسبة لأحوّل مسار السّرد.

انشقّ باب غرفتها ليظهر وجه أبيها. اعتذرت لي وهرولَتْ نحوه وقبّلته، وسألته إن كان يريد منها أية مساعدة، فأجابها بصوت خافت. بالرغم من إلحاحها الشديد أن أبقى، إلا أنني لم أجد الوقت مناسبًا لأي حديث. وعدتها بالبقاء على اتصال وسلكت درب المنزل، ترافقني حسرةُ العائدين بخفي حنَيْن.

عاودت الاتصال بها من جديد، مرة تلو أخرى، لكنها لم تجب على هاتفها. لقاء الدورة اقترب وورقتي ما زالت بيضاء. لم أعرف منها أي شيء يستحق أن أكتبه من قصتها. ماذا سأكتب؟ هل أُؤلف قصتها من خيالي، بعد أن تراجعت عن وعدها؟ هذا من حقي ككاتبة. سأقرر أنا كيف احترقَ جسدها، ومتى، وسأتخيّل شعورها

ومعاناتها من الوحدة في أيام المدرسة، وسأكتبُ عن نظرات الناس المستهزئة وضحكاتهم اللئيمة وحتى شفقتهم المزعجة، في الشارع، في الحافلة، وفي الأماكن العامة، وسأكتب مشهدًا عن صعوبة العمليّات الجراحية التي خاضتها، وعن محبة أبيها ورعايته لها. سأتخيّل الأمر بنفسي، فاختفاؤها لن يمنعني من كتابة القصة التي ستوصلني إلى العالمية. سأطوّر شخصيات مدوّرة مفاجئة، وأخطّط لمبنى دراميّ مثير وأحداث شائقة ونهاية مفاجئة.

وكانت المفاجأة، اتصلت قبل أن أبدأ بتبديل حياتها كما يحلو لي. واتفقنا على أقرب موعد.

جمعنا اللقاء من جديد، بعد تردّد قالت لي "لا أريدك أن تكتبي قصتي"، فاستغربت، "لماذا؟"، "لأنك ذكّرتني بتلك البنت من أيام المدرسة، لقد كانت ابتسامتها فاتنة حين مشت نحوي، وأنا في قمة وحدتي وألمي، وكانت كلما تقدّمت يرقص قلبي فرحًا، إلا أنّها حين وصلت وحدّقت بي عن قرب بجرأة سألتني "مال وجهك؟ كيف هيك صار؟"، أردتها أن تسألني: تلعبي معي؟ لا أريد أن أستعيد شريط حياتي المؤلم، تعبت حتى أتلفته، ولَديَّ اليوم أصدقاء وعلاقات وعمل بعدما كانت حياتي وحدة مؤلمة! لا تؤاخذيني".

أزعجني موقفها، لكن لا بأس، لن ألحّ عليها، يمكنني أن أتفهّم حال الجروح العميقة التي تركتها الحروق على وجهها المشقق في

داخل داخلها. أردت أن أتركها في حال سبيلها، فيبدو أنها لن تكون السبيل إلى قصتي.

"قبل أن تذهبي يا صديقتي، عندي سؤال يلح عليّ دائمًا مطالِبًا بإجابة شافية: كيف يمكن لنتوءات وحروق أصبتُ بها عندما كنت ابنةَ خمسة أشهر، حين طالتْ ألسنةُ النارِ جسدي، لانشغال عائلتي عني، أن تبقى وصمةً لي طيلةَ حياتي؟ كيف يمكن للمرء أن تعذبَه عاهتُهُ وتحرمَهُ من مُتَعِ الدّنيا إلى الأبد؟"

أعادتني بسؤالها الأخير إليّ. فقد عانيت كثيرا جرّاء إعاقتي، تعطلّ النّصف الأيمن من جسدي. يبدو أنّني قد بحثت عن نفسي في قصتها، كي أفهم أكثر قصتي، وأعماق البشر. وهذا، كما فهمت من الدورة، جوهرُ العَمَلِ الأدبيّ.

ضحكةُ ناديا

بقلم: جمان زعرورة

(1)

تلاقَتْ عيونهما في صباحِ ذلك السبت الباكر من أيارٍ عند مسار مزرعة الخيول، تحت سماء صافية تحكي حكاية الأزهار البنفسجية والفراشات التي حلّقَتْ حولهما، كأنها تشعر بسعادة هذا اللقاء.

دوّنَتْ ناديا عن ذلك اليوم في دفترها: "كثيرة هي الأسئلة عن الوجود والنضوج والحب، عن الأمل الذي كان قد تسلل من ثقوب الألم. إنّه يراني جميلة ويدرك نقاء قلبي النقي وتعجبه طريقة كلامي جدًا، ويشعر بحلاوة روحي وشجاعتي. في عيونه إجابات عن أسئلة كثيرة، وفي عيونه كانت، أيضًا، أسئلة جديدة"، كتبَتْ.

قبل أن تتركه هناك، كتبَتْ في حبيبات الرمل الأحرف ألف ميم لام، ورسمَتْ قبلة على جبين الفرس "نور" التي لا ترى، والتي قال لها عاهد إنها تشبهها، ورحلَتْ.

(2)

رأتْ صورته لأوّل مرة في نيسان. كان يرتدي قميصًا أزرق ويحتضن بحنان بين يديه طفلة صغيرة عمرها ست سنوات، أو أقلّ، تشرق ابتسامتها من السعادة. تشبه والدها كثيرًا. فاض قلبها بالذكريات إذ رأت الصورة. لها ولأبيها صورة طبق الأصل، حين كانت في عمر الطفلة، وأبوها كان يلبس يومها قميصًا أزرق أيضًا. من يكون هذا الشاب الذي يحتضن الصّغيرة بينَ يديه ويمنع عنها الخوف من العالم؟ ليس أباها، إنه عاهد، قالوا لها فورًا.

دوّنَتْ في ذلك اليوم بدفترها: "بدأتُ أخاف من غياب والدي في طيات الزمن ومعترك الحياة، فأنا لم أعد تلك الصغيرة، وهو يكبر. لقد فهمتُ مؤخرًا أنني لست قطعة منه. بدأت أخاف أن أخسر دوره الكبير في قلبي، بأن لا أبقى الصغيرة في عينيه. إنه الأمل، إنّه المعلم والمساعد والطبيب، إنّه العنوان، إنّه الأمان، إنه الهدايا تأتي دون مناسبة، إنّه الوقت الذي لي، الذي كان لي. أخاف أن يُفلتَ يدي التي يَمْسِكُها منذ طفولتي لأسير خطواتي البطيئة والمتعثرة ويبتعد، دون عودة".

(3)

ألقى عليها التحيّة، ضحكَتْ ضحكتها السّاحرة، فكاد أن يصطدم بسيارته بعمود الكهرباء القريب. اتصل بها. وتحادثا.

الحبّ طبيعي في الربيع. الحبّ أقوى وأعمق من ضحكة ولحظة فرح عابرة، أسعد من نيسان ومن غيابه، أشد من الفراق والغروب. هو منحها معنى آخر للحياة، من جديد. هي أضافَتْ أسلوبًا جديدًا لحياته، زارَتْ تفكيره المتأمل لساعات، وأبعدَتْ عنه الملل وأهدته ضحكة سحرته وحيّرتْ مشاعره.

يبدأ يومه بالسؤال عن حال ناديا عند مطلع النهار، بعد أن يصحو لتأدية صلاة الفجر، وقبل أن يركب الخيل في المزرعة القريبة من داره. ويظهر اسمه على شاشة هاتفها عند السادسة مساءً بعد عودته من ورشته، حيث يرمّم البيوت التي وضعها الناس

في عهدته لتصير كما كانوا يحلمون. يتصل بها ليسمع صوتها وليبتسم لها في قلبه. لحظات لهفة وفرح وعفوية وصدق. هي تسمع نبضات قلبه الطيب وتطير من السعادة.

عنه، دوّنت في دفترها: "استغربتُ من اهتمامه بأمور كثيرة، إنّه يحب التأمل، وكثير العطف، فتجده يسأل عن حال الطيور والناس والبحر. ويبحث في كتاب الله والتاريخ عن الحقيقة ويخصّص بعضًا من يومه ليشرح لي ما قد أجهله. خلق في حياتي جوًا جديدًا من التساؤل: كيف يحبنا الله سبحانه وتعالى؟ كيف يمكننا الانكشاف لوجوده قريبًا منا؟ كانت تحب الله دائمًا، لكنها بدأتْ تشعر به أكثر بوجود عاهد. الله موجود في كل شعور وفوق كل شعور، الله يرى قلبها وتفكيرها".

(4)

"هل تعملين معي في مطعمي الجديد؟!" كانت تعرف أنّ عاهد مقدِم على افتتاح مطعم في بلدته موسّعًا أعماله التجارية. ارتبكتْ، لكن حيرتها كانت قصيرة الأمد. ستعطيه صورة حقيقية عن وضعها، غير ضحكتها التي سحرته وشدته إليها. في محادثة المساء أخبرته عن خطواتها البطيئة المتعثرة، وعن صعوبة قبولها لأي عمل ترغب فيه، رغم كلّ ما أنجزَتْ في أعوامها الستة وعشرين.

يسمعها، ويقترح عليها عملا غير النادلة في مطعمه الجديد. أثارت حياتُها فضولَه، وكانت أسئلته عنها كثيرة. حكت له بمرح كيف

ترافقها صديقتاها، العكازتان، من الصباح حتى المساء وتتنقلان معها بالمواصلات العامة من مكان لآخر، وكيف أنهت تعليمها الجامعي وحقّقت حلمًا آخر من أحلامها. كان كلام ناديا مزيّنا بالجمال وغامِرًا بالحب، وكانت حين تحكي عن حالها تفرح وتبكي. سمعها وسأل سؤالا حزينًا وأخذ صوته بالابتعاد، حتى اختفى.

(5)

إنه حزيران موعد افتتاح مطعم عاهد، لقد أخبرها بموعد الافتتاح، حين التقيا في أيّار، لكنه لم يذكرها به. فرحت من أعماق قلبها وابتسمت: سألتقي مجددًا به اليوم. تعطرتْ ولبستْ الأسود وعقد لؤلؤ أبيض، وأخذتْ عكازتيها وذهبت إليه.

دخلَتْ على مهلٍ إلى المطعم حيث تجمهرَ الناس حاملين باقات الورد ومردّدين التبريكات والأمنيات. سمعت صوته يضحك، وتلفتت نحوه وضحكت له ضحكتها الساحرة، إلا أنّه هرب من الضحكة واختفى في زحام المهنئين. تركها وسط الزبائن وحيدة مع عكازتيها. رحل في حزيران لينهي ربيعًا قصيرًا، ولتنتهي طفولتها.

يومها لم تكتب أية كلمة في دفترها، وكانت الضحكة كلّ الحكاية.

أيام لن تتكرر

بقلم: شروق خطيب

في ذلك المساء، حملت جميع حقائبي المعدّة للانتقال معي إلى مرحلة جديدة من الحياة، وركبت السيارة، برفقة أبي وأمي، متجهين نحو محطة الحافلات المركزية في العفولة. لم يتحدثا معي طيلة الطريق، ولا أنا معهما. أفارقهما لأول مرة.

عندما وصلنا إلى المحطة، أنزل أبي الحقائب من الصندوق الخلفي للسيارة، وضع حقيبة التعليم على ظهره، وبدأ يجرّ حقيبة السفر الكبيرة، وفي يده الأخرى حقيبة منفوخة لا أعلم ماذا وضعت فيها أمي حتى كادت تتمزّق.

"لا داعي، يابا، سأتدبر أمري لوحدي"، قلت له وحملت الحقائب عنه، وبدأت بالسير بخطى سريعة أكثر من المعتاد متجاهلة "ولكن يابا..." التي أطلقَها وسكت بعدها. سمعت باب السيارة يغلق، وهديرَها وهي تنطلق حين اختفيتُ في طابور التفتيش الأمني.

بدأت البحث عن الرصيف المطلوب للحافلة التي ستقلني إلى القدس، حاولت جاهدة حمل الحقائب الثقيلة. في كلّ مرة كنت أسأل عن الرصيف، كان المارة يجيبونني بإيماءات وإشارات لم أكن قادرة على رؤيتها، وآخرون كانوا يجيبون عن شفقة وعطف لا داعي لهما. وصلت رصيف الحافلة التي ستقلني إلى المرحلة الجديدة من الحياة، بعد أن ارتطمت بعدة حواجز حديدية وبشر وترددات.

صعدت إلى الحافلة ومعي حقائبي، لأتابعَ الاصطدام بالناس والأشياء. كان من الصعب عليّ أن أضع أغراضي في الصندوق المعد

للحقائب أسفل الحافلة، لخشيتي من عدم تمكني من تمييزها بعد أن تختلط بحقائب المسافرين الآخرين، الذاهبين في الحافلة معي إلى أحلامهم ومعاركهم ومحطاتهم القادمة. وقفت عند السائق، أين البطاقة؟ أي واحدة من بين كلّ هذه البطاقات؟ كيف سأجدها يا الله؟ صرخت إحدى المسافرات الواقفات ورائي بالدور: "هيا، لماذا كلّ هذا الوقت؟!" جلست على كرسي قريب من السائق وضعت أغراضي بجانبي، بحثت عن البطاقة، وكان رنين الرسائل في هاتفي النقال لا يسكت، تجاهلته حتى وجدت البطاقة أخيرًا، قدّمتها للسائق مع ابتسامة الراحة.

أجبت على رسائل أهلي القلقة "أنا في الطريق إلى القدس، كل شيء على ما يرام". كانت أمامي ساعتان من السفر، والتفكير. الحافلة معتمة جدًا، والأصوات والروائح غريبة. وأنا لوحدي، مع حقائبي التي تتكوّم إلى جانبي ولا أعلم كلّ ما فيها، في طريقي إلى المجهول. كيف سأتدبر أمري؟ كيف سأصل إلى قاعة المحاضرات؟ كيف سأعيش في بلد بعيداًعن أهلي؟ وأنا التي لا تولي اهتمامًا بأي شيء لأنهم يحيطونني بحب وحنان، كيف أستطيع أن استقل عنهم وقد اعتدت أن يعينوني في الشرب والأكل؟ من سيمسك بيدي لأجتاز الشارع بأمان؟ هل تسرّعت في أخذ قرار الاستقلال هذا؟

أعلن السائق عن وصولنا إلى المحطة المركزية في القدس، موقفًا أسئلتي مع فرامل الحافلة. اتصلت بصديقتي لأعلمها أنني

وصلت لترافقني إلى السكن، بما أنني لا أعرف شيئًا عن هذا المكان الغريب. فاجأتني الصديقة حين قالت لي إنها تنتظرني بالمحطة، وإنّها ستحاول الاستدلال عليّ حين أنزل من الحافلة. هل فعلا تستطيع هي أن ترشدني وهي أيضًا مثلي لا ترى؟ هل أستطيع أنا أيضًا في يومٍ ما أن أرشد أحدهم إلى طريق جديد؟

وجدتها، أو هي التي وجدتني، لا أدري، المهم في الأمر أننا التقينا أخيرًا، تعانقنا، شعرت باستغرابي لكل ما يدور حولي وبداخلي، فقالت لي "ستعتادين، أنت أيضًا، ستعتادين". "هل أنت متأكدة؟" سألتها وأنا أتمسّك بالحقائب كأنها ستهرب مني، "بالطبع" أجابت بثقة وأضافت "سنكون سويًا، وسيكون معنا أشخاص آخرون سوف تتعرفين عليهم، أعطيني حقيبة لأساعدك على حملها"، فأعطيتها تلك المنفوخة التي لا أعلم ماذا كوّمت أمي فيها.

وصلنا السكن الطلابيّ في وقت متأخر من الليل، وضعت الحقائب على الأرض. سأقوم بترتيبها غدًا إن قرّرتُ البقاء في هذه المدينة البعيدة والباردة أصلاً. استلقيت منهكة على السرير. ليس مريحًا كسرير البيت. أجبت على الرسائل القلقة الجديدة من أهلي "وصلت القدس، متعبة، سأنام"، كانت صديقتي ما تزالُ تتحدّث عن الحياة في القدس، وأنا أصطنع الإصغاء والاقتناع، لكن ما كنت أفكر فيه حقًا هو أنّه كان عليّ أن اختار مكانًا أقرب لبيتي أتعلّم

فيه، فالتعلُّم أصلاً في مثل حالتي غير مضمون، فأصحاب البصر لا يجدون عملاً بعد دراستهم فما بالك بمن مثلي لا ترى؟

عندما استيقظت كانت صديقتي قد أنهت تجهيز نفسها، لكنها تمشي على مهلٍ كي لا تزعجني. "هيا، استيقظي، حتى لا تتأخري عن المحاضرة"، أخرجت من الحقيبة ملابس دافئة وجميلة لأنني عرفت أنّ القدس تقابل القادمين إليها ببرد قارص وتوتر شديد وحبٍ انتقائي.

الحرم الجامعيّ قريب من المساكن، مشت معي صديقتي حتى بناية الكلية. دخلت المحاضرة الأولى، كلهم جدد مثلي وغرباء، والمحاضرون منشغلون بالحديث عن برنامج المساقات والمصطلحات الطويلة صعبة اللفظ من أول مرة.

عاودت اللقاء بصديقتي في محاضرة جمعتنا بعد الظهر، في مساق فلسفي عن "الحياة والموت"، كنت متعبة من سفر الأمس وجائعة من كثرة الكلام الغريب. كانت المحاضرة ممتعة فعلاً إلا أنني لم أعد أقدر على تحمّل التعب، فاقترحت عليها أن نخرج. وافقتني، إلا أننا أخطأنا في باب الخروج، ودخلنا غرفة أخرى. تحسسنا ما بداخلها وإذ بنا قد دخلنا غرفة المكيّف. بعد أن استوعبنا الأمر، ضحكنا بصوتٍ عالٍ، علقنا دون أن نعرف ماذا علينا أن نفعل في هذا الموقف المحرج، فالقاعة مليئة بالطلاب والمحاضر حازم وجدّي. خرجت لوحدي لأتمكن من معرفة باب الخروج، ثم عدت إلى غرفة

المكيّف واصطحبت صديقتي إلى خارج القاعة تاركتَين ضحكات زملائنا، حتى المحاضر لم يتمالك نفسه.

أوجعني بطني من الضحك يومها، وحين وصلنا إلى الحديقة المخبأة بين البنايات الحجرية قالت صديقتي "إنّه يوم لن يتكرّر"، كان لهذه الجملة وقع كبير في وجداني. كلّ يوم في حياتنا لن يتكرّر، إن قررنا أنّه كذلك. هناك أيام أهمّ من أيام، كهذا اليوم الأول في الجامعة، في القدس. قد أرتَطِمُ وأقعُ، قد أضيّع المكان، لكني سأقف وأجد طريقي. كلّ يومٍ هدية لن تتكرر.

أعادني الجوع والتعب للبيت الجديد. قبل أي شيء، فتحت الحقائب، بدأت أرتّب ملابسي التي سألبسها في الأيام القادمة، عارفة إياها من ملمسها، في خزانتي الجديدة، تناولت الصحون والملاعق والشوك التي سآكل بها بعد أيام التعليم الطويلة، وجدت غطاء وسادتي التي ترافقني، والتي سأشمّها كلما أستلقي لأُفْرِغَ حقائب أيامي التي لن تتكرّر.

باص رقم واحد

بقلم: تغريد عباس

نهضت سهى من فراشها بسرعة البرق، أسرعت نحو ساعة المنبه لتوقف الرنين المدوّي في غرفة نومها، وما هي إلا ثوان حتى سمعت دقات ساعة بيغ بين تنبعث من المذياع في الفناء المجاور لغرفتها، ها هو مذيع البي بي سي يعلن قراءته نشرة أخبار الخامسة صباحًا بتوقيت جرينتش.

على غير عادتها، منذ عادت قبل سبعة شهور لبيت والديها في الناصرة، بعد إتمامها تعليمها الجامعي في القدس، لم تهرع سهى نحو المذياع لتشارك والدها سماع أحداث انتفاضة الحجارة التي زامَنَت سنتها الدراسية الأخيرة في القدس. اندلعت الانتفاضة يوم 8 ديسمبر 1987 في جباليا، في قطاع غزة، وتصاعدت أحداثها بعد قيام سائق شاحنة إسرائيلي بدهس مجموعة من العمّال الفلسطينيّين على حاجز «إيريز»، ثمّ انتقلت إلى كل مدن وقرى ومخيّمات فلسطين. لقد دبّت تلك الأحداث، وما تلاها من مظاهرات ومشادات كلامية بين الطلاب العرب واليهود في الجامعة، الذعر في قلب سهى ابنة الحادية والعشرين والبعيدة عن عائلتها.

وقفت سهى أمام خزانتها. كان كلام المذيع يشدّ رجليها نحو الفناء لكنها تمالكت نفسها: "بعدين بسمع الأخبار، بديش ينسم بدني، وفش وقت، بدّي ألحق أحضّر حالي". ستُجري سهى بعد ساعتين مقابلة عمل لوظيفة عاملة اجتماعية. فرحتها لا توصف، إذ

أنّها لا بدّ ستباشر العمل بعد أيام، فلا منافس حقيقيّ لها على حدّ علمها، لا متقدّم آخر حاصل مثلها على البكالوريوس في العمل الاجتماعي من الجامعة العبرية، وكما كانت متفوقة في دراستها ستعمل جاهدة لتتفوق في عملها.

أغلقت سهى باب غرفتها. تغريد العصافير أتاها عبر النافذة كجوقة موسيقية مرافقة لها، بينما كانت تدندن "الدنيا ربيع والجو بديع" و"الناجح يرفع ايده". لبست ملابسها بعناية فائقة وهي مطمئنة من أناقتها، فبالأمس ساعدتها أختها في اختيارها.

خرجت سهى نحو الفناء حيث كان والدها، المحامي، يستعدّ لمغادرة البيت. لقد أخبرها منذ الأمس أنّه ذاهب إلى المحكمة في حيفا مبكرًا، لذا لن يستطيع توصيلها بسيارته الخاصة للمقابلة. قبل أن يغادر قال لها ما كان يقوله لها دومًا قبل كلّ امتحان منذ طفولتها: "سهى، أنا بركن عليكِي، بالنجاح!".

كانت والدتها في المطبخ تحضر وجبة الفطور والزوّادة لأخويها الصغيرين المستعدين للذهاب للمدرسة. تمايلت سهى أمامها وطلبت رأيها، فردّت بصوت دافئ: "بتجنني، مش ناقصك إشي"، وما كان لسهى إلا أن ضمّت أمها: "يلا إنبسطي، كلها كم يوم وببدا شغل، وبتصيري تشتاقيلي!".

غادرت البيت باتجاه محطة الباص، مشت بحذرٍ شديد على المقطع الترابي من الشارع حرصًا منها على حذائها الملمع، وعندما وصلت إلى مطلع المقطع المعبّد قامت باستحياء بمسحه بمنديلها، وأكملت طريقها نحو المحطة.

الحمد لله، عند محطة الباص كان هناك العديد من المنتظرين، ما يعني أنّ موعد مجيء الباص رقم واحد، الباص الوحيد في البلدة، قد شارف على الوصول. أخذت سهى مكانها في المقعد الأول في الباص وبدأت تراجع لنفسها استعداداتها للردّ على أسئلة المديرة ذاتها، التي ستقابلها بعد قليل، أسئلة كانت المديرةُ قد وجَّهَتها في السابق لمرشحة طلبت العمل في نفس القسم، إلا أنّ سهى تذكرت نصيحة والدها لها بأن لا تشغل بالها قبل المقابلة بتلك الأسئلة، وبأن تفكر بما هو أبعد من ذلك، بمن هي.

نظرت سهى عبر نافذة الباص رقم واحد إلى الشارع الرئيسيّ الوحيد للبلدة، محاولة أن تحدّد من الملامح التي تراها مكان مرور الباص في تلك اللحظة، فهي طالما رافقت والدتها في تجوالها في هذا الشارع مرورًا بمحاله التجارية المختلفة، وتذكره عن ظهر قلب. هذا، مثلاً، أكثر دكان أدهشها في البلد، دكان الجد نعيم اللولو، الذي كان يومًا ما مغارة، تتكدّس الآن فيها بضائعه في صناديق كرتونية وُزعت في كلّ أنحائه، تجد فيه كلّ ما تحتاج إليه، من أكواز الرمان لإعداد

البربارة حتى أحجار الطوب. أحبت سهى هذا الدكان وخاصة سكاكر السمسم اللذيذة التي اشترتها من عنده.

تابع الباص رقم واحد مساره، وعندما بدأ معظم الركاب يتدافعونَ نحو الباب للنزول عرفت سهى أنّهم وصلوا إلى مدخل سوق المدينة. وضعت كفّ يدها على فمها وبدأت تتمتم بصمت "ياه شو مشتاقة للسوق، بس أبدا شغل بصير آجي كتير عالسوق، وأفرّ أنا وأمي زي زمان بين الدكاكين، يا ترى بعده فاتح هدا اللي ببيع غزل البنات والعنبر؟". تنبهت سهى إلى أن المحطة التالية هي المحطة التي عليها أن تنزل بها. رفعت جسدها مادة يدها للأعلى محركة إياها يمنة ويسرى لتلتقط حبل الجرس، إلا أنّه أفلت منها، لكن أحد الركاب قرع الجرس في نفس اللحظة ففرحت لذلك، ونزلت بعد توقف الباص على مهلٍ منه.

دخلت المبنى بعد تأكدها منه من أحد المارة. استقبلها الحارس الذي قادها إلى غرفة الانتظار مؤكدًا لها أنّ المسؤولة في انتظارها. ما هي إلا لحظات حتى أتت فتاة، عرّفت نفسها بالآذنة، وضعت بلطفٍ كفّها بيد سهى ومشت بقربها خطوات قليلة وقالت: "تفضلي، الست إنعام موجودة في الغرفة المقابلة".

أبهر ضوء الشمس المنير، المنبعث من النافذة الكبيرة وراء مقعد المسؤولة، عيني سهى. اتكأت الست إنعام، ابنة الثانية

والخمسين، مديرة قسم الرفاه الاجتماعي في البلدة منذ أربعة عشر عامًا، على طاولتها الكبيرة التي تبعثرت عليها الأوراق والدوسيهات، وطلبت من سهى أن تجلس على الكرسي المقابل لها بعد أن ألقت عليها تحية رسمية.

جلست سهى موجهة نظرها نحو الست إنعام وبدأت تتحدث عن نفسها بصوت رنّان، وما أن ذكرت حصولها على شهادة البكالوريوس في العمل الاجتماعي ورغبتها في العمل بالقسم، حتى قاطعتها الست إنعام قائلة دون مقدّمات: "بس إنت عندك مشكله بتمنعك تشتغلي"، انتفضت سهى محدقة نحو المسؤولة وقد علا الاحمرار وجهها وبدأت يداها تتعرقان وترتعشان، "إنت عندك ضعف نظر وبتشوفيش منيح، وهدا الإشي راح يمنعك إنك تقدري تشتغلي عاملة اجتماعية"!

أرادت سهى أن تصرخ بوجه الست إنعام إلا أنّ صوتها الذي قاوم ضيق صدرها الشديد انحبس في حنجرتها ليخونها لأول مرة، ذلك الصوت الذي عهدته سهى قويًا حاضرًا وجاذبًا السامعين بما حمل من أفكار ومعلومات، والذي أجبر الجميع على إبداء الإعجاب بقدرات صاحبته، كُتِم الآن. ذلك الصوت الذي قرأت فيه بطلاقة مبهرة قصص الأطفال المكتوبة بخطٍ كبير والتي أحضرها لها والدها خصيصًا، ذلك الصوت الذي شكرت به مديح معلمها لها كطالبة

نجيبة تفوق معظم أترابها، ذلك الصوت الذي لبّت بِهِ نداء مدير مدرستها الإعدادية أمام جميع طلاب المدرسة الذي أعلن حصولها على المرتبة الأولى في التحصيل الدراسي، ووعدت بِهِ مدير المرحلة الثانوية المعجب بشخصيتها القوية وعلاماتها العالية في جميع المواضيع أن تكمل دراستها، ذلك الصوت الذي أجابت بِهِ على أصعب أسئلة محاضري الجامعة، وخفّف صداه في وعيها صعوبات ضعف البصر والبعد عن العائلة، كُتِم في لحظة واحدة، كُتم ذلك الصوت.

تناولت الست إنعام ورقة من على طاولتها وطلبت من سهى أن تقرأ ما كُتب عليها. لاحظت سهى أن الورقة مكتوب عليها بخط اليد، فقرّبتها نحو وجهها محاولة قراءة فحواها، لكن ضعف بصرها لم يسمح لها أن تقرأ ذلك الخط الرديء. كُتم الصوت مجددًا، واشتدّ احمرار وجهها وتعرّقت يداها. بصوت خافت مستفز، ردّدت الست إنعام: "صعب، صعب، كيف بدك تقرأي كلّ التعليمات اللي بتيجي من الوزارة؟ بعدين زي ما إنت بتعرفي اللي بشتغلوا هون كلهن صبايا، وأكيد رايحين يتمسخروا عليكي لما راح يشوفوا إنك بتشوفيش منيح. كمان المتوجهين للقسم لما يشوفوا إنه العاملة الاجتماعية تاعتهن بتشوفش منيح رايحين يطفروا، بعدين كيف بدك تعملي زيارات بيتية؟".

أطبق الصمت في الغرفة، واشتدّ الضيق في صدر سهى. قامت من مقعدها لتغادر الغرفة وإذ بالست إنعام تناديها: "بنصحك ما تفكريش تشتغلي، صعب، صعب"، ثمّ نادت على الآذنة وطلبت منها مرافقة سهى وإنزالها على درج المبنى بحذر. مشت الآذنة ممسكة يد سهى، وهي تهمس لها: "ما تخافيش، ماسكتك منيح، في إلي قريب مكفوف، كل ما بيجي عالقسم يوخد شيك أجرة المرافق بنزله الدرجات. مسكين هذا الشاب، عمره ثلاثة وعشرين سنة، أهله بتقاضوا عنه مخصّصات التأمين، وحتى أجرة المرافق بوخدوله إياها. حكالي انه معهوش ولا شيقل، ويا ريت عهيك بس، أهله بوخدهوش ولا على محل، بستحو فيه". حدّقت الآذنة في سهى التي لم تتفاعل معها وسألتها: "مالك؟ من سيعة ما طلعتي من عند المديرة محكيتيش ولا حرف، ومبين عليكي إنك كتير متضايقة ومثل اللي بدك تبكي، خير؟ شو صار؟" ودّعت سهى الآذنة دون أن تنبس ببنت شفة.

تمالكت سهى نفسها في طريق العودة في باص رقم واحد، لم تنتبه للطريق أصلاً. إلا أنّها انفجرت بالبكاء على صدر والدتها التي ضمتها حال وصولها البيت. مسحت دموعها المنهمرة: "ولا يهمك تسميش بدنك، بس ييجي أبوكي منشوف شو ممكن نعمل، خلص

يمّا ما تبكيش"، لكن بكاءها كان يزيد حرقة كلما تذكرت كلام الست إنعام

لها، وصمتها هي.

"بدي إياكي بكرة من الصبح ترفعيلها تلفون، وتحكيلها الإشي اللي مقدرتيش تحكيها إياه، وأنا معاكِ، يابا"، قال والدها، الذي عاد متأخرًا قليلاً من المحكمة، بحزم القضاة. هدأتْ قليلاً إثر كلام والدها، إلا أنّ كلام الست إنعام ظل يرافقها طوال الليل فازداد ضيقها واستمرت بالبكاء المتقطّع الذي طرد النوم من عينيها. وما أن قاربت الساعة التاسعة والنّصف صباحًا حتى هاتفت سهى الست انعام في مكتبها.

- "مرحبا ست إنعام، أنا سهى، متذكرتيني؟!"

- "طبعًا بتذكرك منيح، بس بفكر إنه امبارح أنهينا الموضوع، فش عندي شو أقول بعد"

- "أنا اللي عندي شو أقول، وإنت اللي لازم تسمعي هالمرة، أنا لساتني مصدومة من تصرفك القاسي معي ومن الكلام الجارح اللي سمعتيني إياه. حضرتك يا مديرة قسم الرفاه الاجتماعي، ما شفتيش إنه أنا أنهيت التعليم بتفوق، وحكمتِي عليّ إني بقدرش اشتغل بدون ما تعطيني فرصة، افتكر هادا الاشي ظالم ومش إنساني. صدمتي

الأكبر إنه هادا الكلام وهادا التصرف صدر عن إنسانة مسؤولة بتمثل مهنة أساسها الإحساس مع الغير، دعمهن وتعزيزهن، بس للأسف إنت ضربتي كل مبادئ المهنة بعرض الحيط. وعلى فكرة، بحب اقولك كمان إنه إذا العاملات الاجتماعيات اللي بالقسم عندك بدهن يتمسخروا عليّ بسبب ضعف نظري هني كمان بعيدات كل البعد إنه يكونو عاملات اجتماعيات، وبشرفنيش اشتغل لا معهن ولا معك".

وأغلقت سهى الهاتف في وجه الستّ إنعام.

لم تعد سهى تسمع نشرات الأخبار مع والدها في الصباح كعادتها، حتى أنّها توقفت عن ممارسة رياضة المشي اليومية كل مساء مع صديقتها، ولازمت غرفتها معظم ساعات اليوم. شكت من ضيق مقلق في صدرها، تقلصت ساعات نومها وتضاءلت وجباتها وصاحَبَ وجهها شحوبٌ دائم.

"سهى، في القسم اللوائي للرفاه الاجتماعي بدهن عاملة اجتماعية، ابعثيلهن السيرة الذاتية" قال لها والدها وأعطاها عنوان القسم.

"بديش أفشل كمان مرة"، قالت وأخفت وجهها عنه. أخذ والدها يسرد لها قصص فشل وقهر وظلم تعرّض لها مشاهير التاريخ الذين نجحوا بإصرارهم وعزمهم وتحدوا الصعاب، من أينشتاين

الذي اتهم بالغباء إلى عبد الحليم حافظ الذي رُمي بالبندورة، وقبل أن يخرج من الغرفة ردّد من جديد بيت الشعر للمتنبي:

وما نيل المطالب بالتمني ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

وما استعصى على قومٍ منالٌ إذا الإقدام كان لهم ركابا

بالفعل، أقدمت سهى وأرسلت سيرتها الذاتية، وذهبت إلى مقابلة العمل. هذه المرة لم تكن في طريق باص رقم واحد، إذ في الدنيا طرق كثيرة. نافسها على الوظيفة أربع متنافسات أخريات، تحدّثت سهى خلال المقابلة بطلاقة وأجابت عن كلّ الأسئلة والمواقف. دعت مديرة القسم اللوائي، الست جيهان، سهى لمقابلة أخرى بعد يومين، وما أن دخلت المكتب حتى استقبلتها بحرارة "أنا دعيتك كمان مرة لأني حبيت أعبّر لك عن إعجابي فيكِ، وأقولك بنفسي مبروك، اخترناكِ من بين المرشحين الخمسة للعمل عنا في القسم اللوائي". خفق قلب سهى بسرعة، ارتعش جسدها وانتفض لكلام الست جيهان، لكنها سألت بصوت خافت فيه فرح متردد: "وشو مع ضعف النظر اللي عندي؟" فردّت الست جيهان: "انا اطّلعت على شو عندك، مش على شو معندكيش، وشفت عندك كتير شغلات حلوة مشفتهاش عند غيرك".

غادرت سهى غرفة الست جيهان والفرحة التي فارقتها منذ خمسة شهور عادت لتغمرها بقوة عارمة، شعرت بأطرافها ترقص

رغما عنها. قبضت على الدرابزين بإحكام وبدأت تنزل درج المبنى، وما أن نزلت أول درجة حتى رأت والدها. هزّت سهى رأسَها بإيجاب وابتسمت كلّها، أمسكت يده بيدها المرتجفة من الغبطة، وردّدت بصوت متأثّرٍ فَرِحٍ بيتَ شعرٍ لخليل مطران:

اِعزمْ وكدّ فإنْ مضيتَ فلا تقفْ واصبرْ وثابرْ فالنجاح مُحقَّقُ

ليس الموفَّقُ مَن تُواتيهِ المُنىلكنَّ من رُزقَ الثَّباتَ مُوفَّقُ

عروس

بقلم: حنان حلومة

عندما أطفأت مريم مصفّف الشعر، الذي صوبّته نحو رأس أمل، كي تردّ على هاتف الصّالون الملحاح، سمعت زبونة كانت تنتظر دورها تقول لزبونة أخرى:

- "لا، عاودت فرطت الخطبة!"
- "ليش، شو السيرة؟ عاد كانوا ميتين بدباديب بعض!" سألتها زبونة أخرى جلست بجانبها.
- "هاي يا ستّي طلعت أختها عميا، ما كنتش أعرف، شفتها بس زرناهن أول مرّة!"
- "بس ما هي العروس ما شالله عليها، حلوة زي القمر، متعلمة وبتشتغل ومحترمة".
- "حتى لو، شو بدي أفتح مؤسسة للمعاقين عندي بالبيت أنا؟"

كانت مريم قد انتبهت لتغيّر تعابير أمل، عند سماعها هذا الحوار، كما انتبهت إلى أنّ أم أمل أيضًا قد ملأها الحرج ونظرت في المرآة إلى انعكاس ابنتها الجالسة على كرسي تصفيف الشعر العالي. استعادت مريم مصفّف الشعر وأشعلته كي تقطع طريق هذا الحديث عن آذان أمل المنزعجة.

أمسكت مريم الفرشاة وبدأت تملّس من جديد شعر أمل التي تحتفل اليوم، التاسع من أيّار، بعيد ميلادها. قاربت على الانتهاء. هذا ليس وقتًا مناسبًا للجدال، وهذا قد يزعج صاحبة الصالون

التي تخشى على مشاعر زبوناتها وتطلب أفضل خدمة لهن. إلا أنّ صوت تلك الزبونة استطاع اختراق صوت المصفّف العالي، فسمعتها "تصحّح" معلومات الزبونة الأخرى وتصف العروس بأنّها كانت وقحة جدًا لأنها قالت لها "يا ريت أولادي يطلعوا مثل أختي!"، فمنعت ابنها أن يرى هذه الفتاة مجددًا.

- "كل الاحترام"، قالت مريم بعد أن أوقفت المصفّف، وبدأت تحرّر أمل من عباءة الصالون.
- "تسلمي حبيبتي، شو أنا مستغنية عن إبني!" أجابتها الزبونة بثقة.
- لا قصدي كل الاحترام للصّبية".

فوجِئَت الزبونة بردّ مريم. فانتهرتْها بحِدّةٍ صاحبة الصالون، التي كانت تحضّر الكرسي لإجلاس زبونة ثانية، كي تُسكِتَها: "مريم!"

- لا، معلش، بكفيش إنه مجتمعنا بحرم أصحاب الإعاقات من الزواج، كمان بدكو تحرموا عائلاتهن؟ إخوتهن واخواتهن؟ إسا فهمت ليش في ناس بستحوا باولادهن اللي مع إعاقة، بهملوهن وبنسوهن في المؤسسات، كنت اشتغل بمؤسسة كانوا الأهل ما يزوروش اولادهم أشهر طويلة، بس لما صاروا يقبضوا على الزيارة صفّوا بالدور!

- "ابني أهم إشي بالدنيا، مش مستعدة أحطّه بهيك وضع! اللي عندها إعاقة أو خطر إعاقة مش لازم تتجوز، حرام!" أجابتها الزبونة الثانية.

وقفت أم أمل، لتنزل ابنتها عن الكرسي، أدارتها نحوها وقبلتها وهي تقول: "بتجنني يمّا، الله يسعدك، عروس!".

انتبهت الزبونة أنّ لأمل إعاقة بصرية، فشعرت بحرج من الأم والتفتت بالاتجاه الثاني.

- "وبنتي أهم إشي بالدنيا.."قالت أم أمَلْ للزبونة.
- "يا ريت كل الأهالي مثلك،" قالت مريم التي أحرجَها الموقف أكثر من الزبونة.

شكرت أمَلُ مريمَ وصاحبةَ الصّالون، وقبل أن تخرج منه التفتت إلى الزبونة وقالت:

"على فكرة، الإعاقة مش بالجسد بس، إنت روحك معاقة".

الطبيبة

بقلم: جمال مصري

بينما كنت أنتظر موعدي للدخول إلى غرفة الطبيب النفسي، سألتني زوجتي، الجالسة إلى جانبي، إن كنت أريد أن أشرب الماء، ولم أجبها رغم أنني كنتُ عطشانَ جدًا.

أَنتظر هذا الموعد منذ أسابيع عديدة، وأخيرًا سألتقي بطبيب عربي يفهمُني وأفهمُهُ. في الزيارة الأخيرة أدخلوني إلى طبيبة لا تتكلم العربية، سألتني عن سبب وجودي هنا، فبدأت أحاول أن أشرح لها مشكلتي بالكلمات العبرية القليلة التي أعرفها. عندما بدأت زوجتي تتكلم أيضًا انهالت دموعها مثل المطر، فأجابتها الطبيبة بدموع وعطف، وقالت إنها تشعر بوجعنا وتفهم صعوبة الحالة التي نعيشها، لكن من الأفضل، برأيها، أن يعالجني طبيب نفسي يفهم لغتي، كي يستطيع مساعدتي.

حان موعدي، طلبت مني سكرتيرة الطبيب أن أدخل إلى غرفته، أمسكتني زوجتي بيدٍ وحملت عكاكيزي بيدها الأخرى.

سأَلَني: شو اللي صار معك؟

- كنت بالورشة، طلب مني المعلم أوقف بمحلّ أمسك شغلة، وإلا حدا بنادي عليّ، انتبه انتبه...
- شو كنت تشتغل؟
- بالعمار.
- طبعًا راح تتآذى بشغل الطوبار، لو إنك شدّيت حالك واتعلمت وأخذت شهادة ما كان صابك اللي صابك.

لم أصدّق ما أسمع. حاولت زوجتي التدخّل بالحديث: "بس يا دكتور"، إلا أنّه أسكتها وطلب منها أن لا تتكلم بالمرة.

"طيب، كمّل!" قال لي لكنه لم ينظر إليّ بالمرة، كان ينظر إلى هاتفه النقال، ويضغط على لوحة مفاتيح الحاسوب، وكأن لا أحد معه في الغرفة.

- حاولت أن أرمي بنفسي من الطابق الثالث.
- يا أخي إذا بدك تنتحر انتحر، شو بده يخسر العالم يعني؟ مين ماسكك؟ اطلع برا وارمي حالك قدّام عجل سيارة وانتهينا!

وقفت زوجتي بغضب وأمسكت بمرفقي لتصحبني خارجًا وهي تقول: "أنا ماسكته، وولاده ماسكينه، لا تكبر فإنّ الله أكبر".

وقفتُ بصعوبة، وقلت له: "أنا اللي مش متعلم عندي إشي أحسن من العلم، عندي أخلاق يا دكتور!

رافقتني زوجتي بخطواتي البطيئة على رجلي المثقلة بالجروح كي أخرج من هذه العيادة، كما رافقتني منذ أن أصبت في العمل، حين لم أنجح بالهروب من مجسّم ثقيل وقع عليّ من طابقٍ عالٍ في ورشة البناء. "دير بالك" صرخ مدير العمل لكن رجلي علِقت بشيء لا أعرفه، فوقع المجسّم عليّ وهشّم رجلي. لم أكن أدري يومها أنّ الإصابة خطيرة إلى ذلك الحدّ. كانت معي رفيقة الدرب طوال المدة التي قضيتها في المستشفى. كانت هناك عندما قال لي الطبيب إنني

فقدت قدرتي على العمل نهائيًا بقية حياتي. وقعت عليّ كلماته أثقل من ذلك المجسّم وحطّمتني. أنا العامل النشيط القوي، الأب الذي يريد أن تكون لأولاده حياة أفضل من حياته، وأن لا يحرمهم من أي شيء، لن أعمل بعد اليوم، لن أستطيع حتى المشي. فقدت وعيي يومها عدة مرّات. كانت زوجتي أول من رأيتُ بعد أن أستعدتُ الوعي.

كانت زوجتي معي عندما ذهبنا إلى عرس أحد الأقارب، رأتني عن بعدٍ عندما جلست وأنا أنظر كيف يعمل الجميع، يحملون الرزّ والمشروبات والحلويات ويستقبلون الناس ويجلسونهم على الكراسي، يتنقلون بخفة كالنحل. حاولت أن أساعدهم لكني لم أستطع فأعادوني إلى كرسيي. كلهم ابتعدوا عني، حتى أقرب الناس إليّ. لم أكن أريد أن أبقى على هذا الحال، الموت أرحم. عندما عدنا إلى بيتنا في الطابق الثالث حاولت أن أرمي نفسي من الشرفة لكنهم أمسكوا بي، وفي اليوم التالي شربت كمية هائلة من الدّواء. رجتني زوجتي أن أصبر وأبقي إيماني بالله ورحمته كبيرًا في قلبي، واصطحبتني إلى الطبيب النفسي كي يعالجني.

قبل أن نخرج من العيادة قلت لها: "بدّي ميّ يا غالية"، نظرت إليّ بعينيها التي لمعت فيها الدموع، أجلستني على الكرسي، وذهبت لتحضر الماء، شربت نصف الكأس وأعطيتها نصفه الآخر:

"لما إنت حدّي، راح أشفى".

وصفة!

بقلم: عباس عباس

"رفع راسنا آخر العنقود" قال أبي بصوته الصدّاح فرِحًا، في ختام الحفلة الصغيرة التي أقامتها أسرتي على شرف نتيجتي في امتحان "البسيخومتري". لكني عندما قلت إنني لا زلت أفكّر أي موضوع سأختار للدراسة، إذ تؤهلني علاماتي لدراسة أي موضوع أريد، دنا مني أبي قائلا:

"إنت بتعرف يا عبّاس، إنه كلّ إخوتك وأخواتك كانت عندهم رغبة بدراسة الحقوق، لكن الظروف ما سنحت لهم. بس إنت عندك الإمكانية، وبما إنك اليوم تحت حكم ديمقراطيتي الخاصّة أنا بخيّرك بين موضوعين للدراسة في الجامعة: إما الحقوق أو المحاماة". وضحك.

قبل أشهر قليلة من افتتاح السنة الدراسية لكليّة الحقوق، أو المحاماة، في الجامعة العبرية، وصلتني رسالة من قسم الرفاه والخدمات الاجتماعية في بلدية الناصرة تزف لي البشرى بأني مستحق لشهادة كفيف نتيجة لتدهور حاد في بصري. جميل! سأحصل على شهادة جديدة شريطة إجراء فحص طبي يؤكد تدهور بصري.

بعدما دخلت بصحبة والدتي إلى عيادة الطبيب "ن"، وبينما كنا ننتظر دوري، وبعدما حاولت أن أتفحص المكان ببقايا نظري، شاهدت جريدة على الطاولة، دون أن أتمكّن من قراءة عناوينها الفرعيّة، شممت رائحة ليست كريهة ولا عطرة، إنما رائحة كتلك

الرائحة التي كنت أشمها حين أذهب للمستشفى لأجتاز فحصا طبيًا. أصبحت أعرف الأمكنة من رائحتها.

بعد وقت وجيز، سمعت اسمي يهدهد في فناء العيادة، فدخلت مع والدتي إلى الطبيب. استقبلنا الطبيب بفتور، لم يكثر من الكلام، واصطحبني إلى جهاز فحص النظر. وضع رأسي فيه وبدأ وبيده مصباح صغير يحملق في عيني. شممت رائحته حينها ولم تعجبني. بعد برهة، وقف الطبيب وقال:

- إنت بتعاني من أصعب أمراض العيون، مرض الشبكية الصباغي، اللي بسبّب ضعف بصر شديد، وفي بعض الاحيان لكف البصر بشكل كامل. يعني نظرك تعبان يا...
- بعرف يا... دكتور.

جلس الطبيب إلى مكتبه مجددًا، وفهمت بأنه بدأ يكتب نتائج الفحص، وهو منهمك في كتابته توجه إليَّ سائلا:

- انت شو بتعمل بحياتك؟

- الشهر الجاي راح أبدأ الدراسة في الجامعة العبرية بالقدس، محاماة، أو حقوق! جبت علامة بسيخومتري عالية..."

- شووو؟ شووو؟ إنت بدَّك تتعلم محاماة في القدس؟ يا ابني أنت بتشفش عن نص متر، واللي زيك لازم يقعدوا بشي قرنة بالبيت ويسمعوا راديو.

شعرت بأن سقف العيادة تحوّل إلى حجارة من سجيل انهمرت على رأسي. ارتبط لساني وصعقت كمن يصعق بصعقة كهربائية مميتة. خرجت مع أمي من العيادة وإذا بها تجهش ببكاء مرير وتقول: "شو عملت بحياتي تنو هيك بيصير فيي؟!".

وأنا في خضم ثورة من المشاعر الجياشة الممزوجة بالأسى والغضب الشديدين، انفجر بداخلي بركان من قوة دفينة سرَتْ في عروقي ودفعتني إلى أن أحضنَ أمّي وأقبلها وأقول لها بثقة: "وعد مني يا إمي، راح ييجي يوم وترفعي راسك فيي، ما تزعلي حالك، مش راح أمشي على وصفة هذا الدكتور!"

لم أنصع فعلاً لوصفة الطبيب، ولم أجلس في زاوية البيت، حتى الراديو لم يكن لدي الوقت الكافي لسماعه، فقد انتقلت إلى القدس، ودرست الحقوق، ورغم كل ما لاطمَ مَسيرتي من تحديات، أنهيت البكالوريوس في الحقوق معبدًا الطريق لشهادة الماجستير في حقوق الإنسان ومن بعده الماجستير في إدارة الأعمال.

كان أبي وأمي يريدان أن أتابع مسيرتي الأكاديمية لأحصل على الدكتوراه، إلا أنني قررت أن أصنع مصيري بنفسي، وقمت بتأسيس جمعية "المنارة"، مؤمنًا بشكل راسخ أن الدعم الذاتي والنهوض بذوي الإعاقة في مجتمعي العربي هو أفضل معادلة نحو التغيير والتأثير. انطلق قطار المنارة ليجتاز محطات عديدة من إنجازات غير مسبوقة وعلى رأسها إحداث ثورة هادئة تطيح

بأساليب التعامل الأبوي ونظرات الشفقة لذوي الإعاقة. تمكّنت في غضون سنين قليلة أن أبني مؤسسة فتية وطموحة.

بعد خمس سنوات من النجاحات في "المنارة"، تم اختياري كأفضل مبادر اجتماعي من قبل مؤسسة "أشوكا" العالمية للمبدعين الاجتماعيين، والتي منحتنا الاعتراف العالمي كنموذج يُحتَذى به في تطبيق مبدأ الدعم الذاتي كرافعة للتأثير المجتمعي المحلي والعالمي. وفي أعقاب هذا الاختيار دعيت، في أيار 2010، للمشاركة في المؤتمر الدولي للمبادرات الاجتماعية والذي عقد في مدينة سان فرانسيسكو في الولايات المتحدة.

لم أكد أرتاح من عناء سفرتي الطويلة والمكلّلة بنجاح منقطع النظير، حتى وجدت نفسي منهمكًا بالاستعدادات الحثيثة لاحتفال "المنارة" بعيدها الخامس، والذي تقرر أن يكون احتفالا ضخمًا. كان الاحتفال مميزًا ومؤثرًا وحافلا بالحضور، وعندما وقفت لألقي كلمتي الترحيبية، توجهت لها: "أتذكرينَ العهد الذي قطعته على نفسي، بأن سيأتي اليوم وتفخرين بي؟ أتمنى أن أكون قد وفيت بهذا العهد"، مئات الحاضرين تفاعلوا كثيرًا، صفّقوا وصفروا ووقفوا، وتأثروا حين شاهدوا والدتي تطلق العنان لدموع الفرح. لم أستطع رؤيتها تبكي، لكني شممت دموعها. أذكر رائحة دموعها، وأعرف صوتها جيدًا، أعرف حالها من صوتها، أصبحت أعرف الناس جيدًا، من صوتهم. كانت سعيدة جدًا تملؤها نشوة الفخر والنصر.

بعد أسبوع، أو أكثر، من الاحتفال البهيج، تلقيت اتصالا هاتفيًا من صديقي ومعلمي السابق أبو الشادي، الذي أصبح أيضًا وكيل التأمينات في "المنارة"، يخبرني فيه بأن شركة التأمينات بحاجة ملحة لاستصدار تقرير طبي جديد يفصّل حدة إعاقتي البصرية، وأنّه قد حجز لي موعدًا عند الطبيب.

عند دخولي، أنا وزميلي ورفيق دربي المخلص محمد، إلى سيارة أبو الشادي ليصطحبنا معه إلى العيادة، دفعني فضولي أن أسأله عن اسم الطبيب، فأجاب أبو الشادي بفخر أنه الطبيب المعروف: "ن"! ماذا؟ من كل أطباء العالم لم يقع الاختيار إلا على نفس الطبيب الذي ما زالت وصفته معششة في عقلي ولم ولن أنساها ما حييت؟ فهم أبو الشادي الموضوع وقال بينما ركن السيارة في الموقف: "هي فرصتك يا عزيزي لتصفية الحساب القديم".

دخلت مع محمد إلى العيادة وجسمي يرتجف من شدة الانفعال وبعد وقت وجيز سمعت صوتًا مناديًا:

"عباسُ عباسٌ إذا احتدم الوغى والفضلُ فضلٌ والربيعُ ربيعُ"

ماذا؟ إنه الطبيب يناديني، يا لها من بداية شعرية غير متوقعة!

طلبت من محمد أن ينتظرني في الخارج، إذ فضّلت مقابلة الطبيب وحدي، وأن يكون يقظًا ومستعدًا للضغط على أرقام الطوارئ، الشرطة أو الإطفاء، إن اقتضت الضرورة.

رافقني محمد إلى باب عيادة الطبيب وأنا متثاقل الخطى، تعصف بي موجة من المشاعر الجياشة المتناقضة، تقذفني تارة إلى غياهب الماضي، حين لم أنبس ببنت شفة أمام الطبيب قبل أكثر من عقد من الزمن، وتارة تزودّني بخوذة الثقة بالإنجازات الكبيرة لي خلال هذا العقد من الزمن.

صافحت الطبيب، الذي ردّ عليّ بنفس اللهجة والعبارات التي رمقني بها قبل سنين طويلة، أما أنا فقد شممت نفس الرائحة. وبينما كان الطبيب في خضم فحصه المعهود، انتابني شعور بأنني كالأسد يتربص بفريسته. باغتّ الطبيب وبادرت بالكلام:

- في شخص يا دكتور، زارك هون بهاي العيادة قبل سنين طويلة، وإنت كنت على وشك إنك تحطم له مستقبله، بس هو مزّع وصفتك غير الطبيّة، وما قعد بالقرنة يسمع راديو، تعلّم وأخد شهادات جامعية عالية، وهو اليوم مدير مؤسسة ناجحة لذوي الإعاقة اسمها "المنارة"، ومش من زمان رجع من أميركا، بعد ما أخذ جوائز عالمية وتقدير كبير!"
- مين هو هذا الشخص؟ شوّقتني أعرف.
- هذا أنا!

بعد دقيقة من الصّمت المطبق توجهتُ مزهوًا إلى الطبيب الذي شعر بالحرج الشديد:

"أنا سامحتك يا دكتور، بس إياك ثمّ إياك تعملها مع كمان شخص!"

وبينما كان الطبيب مذهولا طلبت منه أن يدعو زميلي محمد، الذي طلبت منه أن يخلّد اللحظة التاريخية بصورة فوتوغرافية لي مع الطبيب "ن"، لأني تمنيت أن يقف الزمن في تلك اللحظة، ويستمر شعور الانتصار ونشوة إغلاق الدائرة، لكني سرعان ما فتحت بعدها دائرة جديدة: طلبت من الطبيب أن ينشط في جمعية "المنارة" من خلال تقديم محاضرات لأهالي الأولاد ذوي الإعاقة البصريّة حول أمراض العيون.

سأبقى بقربك دائمًا

بقلم: ريم ارشيد

انتظار

كان اليوم ماطرًا، وكأن تلك الدّيمة تلاحقني لتمطر فوق رأسي، كيف أهرب منها؟ أو لربما هي التي تسوقني إلى الهدى! عبثًا حاولت الهروب منها. انتظرت قليلاً إلى أن تتوقف الدّيمة عن ملاحقتي حتى أصل إلى وجهتي التي أريد.

الزيارة الأولى

عندما رأيته يدخل غرفتي في المستشفى بَدَّدَ نوره عتمة قلبي. هطلت دمعته العطوفة من مقلتيه على خدّي حين دنا مني ليقبلني ويحضنني، مسحتها بيديَّ المرتجفتين إثر المخدر، وأزحت قناع التّنفس الذي وضعوه على وجهي وابتسمت.

- لا تقلق يا أبي، سأكون بخير.
- أعيدي جهاز التنفس، لتكوني بخير.

قال، وجلس على طرف السرير، قربي، ينظر إليّ، وفي صمته أمل يبحث عن إشارات الحياة في عيني التي بدأتا بالانطفاء منذ ذلك اليوم. كنت أغفو وأصحو، وكان جالسًا طيلة الوقت قربي.

رنّ هاتفي المحمول، قرّبت الشاشة إلى عيني.

- كيف أنت يا أختي؟
- بخير.
- سنأتي غدًا لزيارتك.

- لا داعي، لديّ هنا كلّ ما أحتاج. لا داعي إلى مجيئك إلى هنا بعد العمل، فالمسافة بعيدة، سيكون الوقت متأخرًا عند وصولك، ولن يَدَعُوك تدخل إلّا بضع دقائق.
- لكن يا أختي...
- صدقًا أنا بخير. سأتحرّر من المستشفى خلال يومين، وزوجتك حامل، لا أريد إرهاقها. اِتَّصلا بي صوتًا وصورةً كي أطمئنَّ عَنْكما وتطمئنّا عنّي. لست وحدي هنا.
- من معك؟
- أنا بخير، سأكون بخير.
- من معك؟

عندما أنهيت المحادثة دون إجابة، ضحكت أنا وأبي، وخشيت أن يخترق الصوت ستائر الغرفة ويزعج المريضة التي بجواري، فهمست له:

- لقد غرستنا في تربة صالحة. أنت من علمتنا الحب بكل معانيه.
- لكني لم أعبّر لكم عن حبي.
- لقد شعرنا به، يا أبي.

حضنني وقبلني قبلة لم أشهدها قط، قبلة رضا. هطلت دمعة أخرى. لكني لم أمسحها هذه المرة.

- ريم، ريم، ريم... لماذا لا تجيبنني؟

لم أنتبه إلى الممرضة حين دخلت مسترسلة بالكلام، تجرّ عربة الأدوية وأجهزة الفحوصات والأسئلة المتكررة. ناولتني جرعة الدواء المسائية غير مستغربة شرود ذهني. قاست الضغط، وسجّلت على الورقة الكبيرة المعلقة على الطرف الأمامي للسرير وهي تنظر إليّ من فوق إطار نظاراتها. رأيتها بصعوبة.

- هل أنت بحاجة إلى أي شيء آخر يا ريم؟

أجبت بالنفي، بهزة رأس وابتسامة صعبة. أمسكت الممرضة الجرس ووضعته قريبًا مني، وقالت:

- إذا احتجت لأمر ما اضغطي عليه وسأكون عندك في الحال!".

- شكرًا للطفك. سأكون بخير.

بعد أن أطفأت الأضواء وخرجت، استلقى أبي بجواري على الكرسي المعدّ لنوم الزوّار.

- لا داعي لأن تبقى معي. اذهب لترتاح. لم أعد طفلة.

- سأبقى بقربك دائمًا، حتى عندما تكونين عجوزاً "مُتَسْعِنَة".

ضحكت بصوتٍ عالٍ، لم أتمالك نفسي. عادت الممرضة، أشعلت ضوءًا واحدًا وسألتني لماذا أضحك، وإن كنت بحاجة إلى شيء؟

- لا، كلّ ما أريده عندي.

أطفأت الممرضة الضوء الأخير، وخرجت مستغربة.

- ليت أمي كانت معنا، هنا.

عدت لأهمس له، من جديد، مبتعدة عن الضحكات مقتربة منه. لمعت في عينيه دمعة، فدنوت منه وأحطتُهُ بذراعَيَّ.

لولا حبّي لأمّي لظننت أنّ لديَّ عقدة إلكترا التي تعلّمت عنها في دروس علم النفس. خشيت أن تكون لديّ هذه العقدة، لكن حالتي مختلفة، لن يستطيع أي عالم نفس كان أن يعرف ما يجول بتلك العلبة التي أخفيها دون أن أفصح عنها. كلاهما نور حياتي.

- لقد ارتاحت من مرضها الذي أكل جسدها رويدًا رويدًا... صدقًا.
- لا بدّ أن تأتي لزيارتك هي أيضًا يومًا ما.

ونمت.

<u>بعد أربعة شهور</u>

"ضغط عال في الرأس. مشكلة حلّها موجود. لكننا بحاجة لعملية أخرى حتى لا تحصل مضاعفات خطيرة" قال الطبيب.

غرفة عمليات، مرة أخرى، ومرة أخرى. انتهك المرض مصدر رؤيتي! لم أعد أرى إلا أطيافًا. لم أعد أسمع إلّا صوت بكاء والدي الأجشّ عند زياراته.

بينما كان الطبيب يطمئنني أنّي إن تناولت الدّواء صباحًا ومساءً وقمت بالفحوصات الدورية سيكون كل شيء على ما يرام، كنت أحسب كم كان عمر أمي حين رحلت شابة؟ كم بقي لي من الزمن كي أصيرفي عمرها؟ كي أرحل أنا أيضًا. لقد تعبت. كنت أريد أن أوقف محاضرة الطبيب القصيرة وأذكّره أنّ أمي أيضًا كانت تأخذ الدواء بانتظام صباحًا وعصرًا ومساءً، ولم يمهلها المرض كثيرًا ليهزمها وهي في ريعان شبابها. كنت أريد أن أصرخ بوجهه: هذا الدواء لا قيمة له في حياة أحياها لا أرى فيها إلا ظلامًا دامسًا وحمرة لعينة. الاعتياد على حياة كهذه مَهَمَّةٌ شبه مستحيلة. كم بقي لي من العمر؟

في تلك الليلة زارني أبي، دخل الغرفة وجلس قربي.

- جيد أنّك جئت، أوّد الحديث إليك.

جلست كالمعتاد ملتصقة به رامية رأسي على كتفه، وبلحظة انفجرت باكية بحرقة، فاندهش لشدة بكائي.

- ما بك ريم؟

قال اسمي بلحن جميل كتغريد البلابل تردّد صداه في قلبي.

- لقد تعبت، تعبت كثيرًا يا أبي، إلى متى سأبقى على هذه الحال؟ تعبت من هذه الحياة. أريد أن ألحق بأمي.

وقف وشدّني بقوة، وبكى معي. كان عناقا باكيًا كالديمة تهطل الدموع منها لتملأ الكون. حاولت أن أهدأ لهدأ، أبعدت يديه عني، وجفّفت دموعي وهو لا يزال يبكي بحرقة.

- أبي، لا تبكِ، أرجوك. سأحاول، سأقدر، لا تقلق.

مسحت بيدي وجهه الرطب، ومرّرت يدي على شعره الناعم كالحرير لمواساته. لأول مرة أخاف بكاءه، خوفًا عليه. فهو عادة لا يبكي بحرقة كهذه، قلما بكى في حياته أصلاً. لم أره بهذه الحالة قط إلا عندما فقد أمي. قال وصوته مخنوق:

- ارسمي حياتك بألوانك أنت، لتريها من جديد.

توقفنا عن البكاء، نمت من جديد.

ضباب

رنّ هاتفي المحمول، تنبهت. عدت إلى وعيي وكأنني كنت أحلم!

- أين أنت؟! لقد أتى، لقد أتى!

كانت الفرحة في صوت أخي الذي زفّ لي خبر قدوم طفله الأول لا تشبه أي فرحة. هرولت إلى المشفى، ولتطاردني هذه الديمة ولتمطر عليّ.

كانت كلّ العائلة في غرفة الانتظار. لكن أبي لم يكن هناك، بدأ القلق يتسرب إلى قلبي، لقد تأخّر، ما به؟ إنه حفيده، حامل اسمه، يا الله، يجب أن يكون هنا في هذه اللحظة. أطلت ممرضة

تحمل بين يديها الصغير لتُرينا إياه، هرول الجميع لرؤيته، إلا أنا، بقيت انتظر أبي بترقُّبٍ قرب الشباك، ليطلّ من ضباب هذا اليوم الماطر وينبئني بحضوره.

- ريم، تعالي لترَي الطفلَ، إنّه يشبه أبانا، رحمه الله.

الصفحة الأخيرة

بقلم: إياد برغوثي

اخترت كلّ الملفات، جررتها إلى قلب الرسالة، وضغطت على زر "أرسل". انتهت الدورة. ستصير كتابًا بعد أشهر قليلة. كلّ تلك الأفكار التي سمعتها في الأول من نيسان الماضي، أزهرت وأثمرت قصصًا حقيقية.

عندما تركت القصص تغادر حاسوبي، شعرت بحزن فراق استغربته، ذكّرني بذلك الشعور الذي ينتابني كلّ مرة أنهي فيها رواية أو قصة أحببتها، إذ أودّ أن لا أودّع الشخصيات وأن لا أخرج من عالمها. لكني أطوي الصفحة متقبلاً حتمية الورقة الأخيرة، معزيًا نفسي بما تسرّب فيها من صور ومشاعر وذاب فيّ وصار جزءًا مني، وأضع الكتاب إلى جانبي وأغطّ في حلم جديد.

في هذا الربيع، الذي سافرت خلال أيام سبته المشمسة، من المكان حيث أعيش إلى المكان حيث ولدت وكبرت، والطريق سالكة منسابة، جلس حلمي إلى جانبي خلال الطريق يحدثني كصديق قديم متفهّم، يكمل ما انقطع من كلامه في خضمّ الهموم والقلق. "كل ما تريده هو أن تكتب قصتك، وقصص الناس"، ثمّ أضاف "وأن تساعدهم في كتابة قصصهم، هذا أنت، ببساطة".

فكّرت، أن الطريق مني إليّ صارت أقصر، لأنني قرّرت أن أعمل ما أحبّ في يوم العطلة، وأنّني كنت بحاجة إلى أن أسير طريقًا طويلة ممتعة وشائكة، كثيرة الحواجز والمنحدرات والمناظر الجميلة،

واختناقات السير والشوارع الجديدة، كي أدرك أنني أفعل ما أحب. كي أفهم لماذا أنا مولع بالقصص، ومقتنع بأنّ علينا أن نعرف كيف نكتب قصصنا وقصص الآخرين، لأننا حين نكتب بصدق عمّا مررنا به من تجارب قلبت كياننا، ومشاعر كوتنا، وأفكار رسخت في وعينا فكونتنا، عن أحبائنا، وعن البغضاء عند البشر، نفهم حالنا والحياة أكثر، ونرتاح، ونُشعر الآخرين أنّهم ليسوا وحيدين. ولأنني حين أكتب قصتي، أغادر نفسي لأصير ملكًا للغة والناس، الآن وفي أزمنة أخرى، فأبقى، ونبقى.

في هذا الربيع، الذي انتظرت خلاله مروره كي يأتيني الصيف ببنت انتظرتها كلّ حياتي، أدركت مع كلّ سطر جديد من قصص المشاركات أنّ للأبّ دور حاسم في الحياة. لم يكن الأمر جديدًا علي طبعًا، لكني أدركت عمقه وشعرت بعظمته كما لم أشعر به من قبل. إنّه التوقيت، كما يبدو، وتراكم المعاني والإشارات، والحقيقة البشرية بأبسط صورها. سيشغلني هذا الموضوع طويلاً، كما يبدو.

القصص تحكي نفسها. لن أحكي عنها. لقد أرسلتها، بعد تحريرها، كي تنشر، لكني لم أتحرر من أثرها بعد، ولا أريد.

ربيع 2017